إستراتيجيات التخاطب الإنساني

محاضرة ألقيت في منتدى الثلاثاء الثقافي بتاريخ ٢٦ صفر ١٤٢٩هـ الموافق ٤ مارس ٢٠٠٨م

ميثم البحراني
مدرب في علم النفس الفلسفي

الإستراتيجية تعني الخطة العملية للوصول إلى الهدف، سواء في الجنبة الميدانية أو التنظيرية. وهي مفردة يعود تاريخها اللغوي إلى (strategus)، و(ستراتيجوس) هو رب الحرب في الثقافة اليونانية القديمة، كان الناس يلجؤون له في الحروب ليلهمهم خطة ينتصرون بها، ومن هنا تولدت كلمة استراتيجية.

بهذه المقدمة، أردت أن أبين دور الاستراتيجية في قيادة أي مشروع نقوم به، والواقع أننا عندما ننطلق في الخطاب، وخصوصًا الخطاب الديني في مهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإننا نشرع في مهمة مقدسة وتكليف عظيم دون وضع إستراتيجية أو خطة نتنبأ بها لردة الفعل المحتملة من الطرف الآخر. ولذلك، تؤدي عملية الخطاب في كثير من الأحيان إلى مردود عكسي يجر للمعاصي بدلًا من تقليلها بخلق روادع داخلية تعزز تحصين الإنسان.

وضع أحد علماء النفس اللغويين ـ ويسمى ستيلور (Stailour) ـ خطة أو قانونا للخطاب اختصر قواعدها الخمس في كلمة (ROUTE) أي مسلك باللغة الانجليزية. (Response) أو ردة الفعل هي القاعدة الأولى، وفيها أشار ستيلور لأهمية التنبؤ بردة الفعل المحتملة من الطرف الآخر. ففي حياتنا اليومية في البيت، والشارع، والمدرسة، والعمل، نلاحظ جميعًا انطلاق خطابات من أشخاص إزاء بعض التصرفات المزعجة، فيفاجؤون بردة فعل أكثر

منتدى الثلاثاء الثقافي
Thulatha Cultural Forum

إزعاجا، فقط لأنهم لم يتنبؤوا بما قد يحصل مسبقًا.

القاعدة الثانية هي قاعدة المحصلة والهدف (Out come)، ومحصلة الخطاب ينبغي أن تتمركز حول التأثير على الطرف الآخر لا تغييره؛ لكوننا لسنا مخولين في فرض التغيير عليهم بقدر إمكانية إسهامنا في خلق تغييرات نفسية وحوافز معنوية لهم على طريق التغيير. فلا يمكننا فرض الصلاة على أحد مثلًا بتهديده بسلاح، ولئن فعل فلأنه مجبر سيتوقف متى ما غاب المؤثر، وهذا التغيير ليس تغييرًا جوهريًّا بل قشريا يرتبط بهوية المجتمع، ولكنه لا يسهم في إحداث تغيير نوعي في القلوب وفي المعتقدات الذهنية والمرتكزات التي تحرك سلوك الإنسان.

جاء في كتاب تحرير الوسيلة، وكتاب العروة الوثقى للسيد الإمام رحمه الله قوله: «لا يسقط تكليف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إذا احتمل التأثير»، فقد تتوالى التأثيرات حتى نصل إلى نقطة إحداث التأثير السلوكي مهما تواضع حجمه؛ فقد لا يتجاوز التغير الإقلال من نسبة المعصية لا تركها حتى يصل لمرحلة القناعة لضرورة تركها كليًّا.

القاعدة الثالثة التي وضعها ستيلور هي قاعدة الاستثمار (Utilization)، وتستلزم استثمار جميع المؤثرات التي تسهم بالتأثير على الطرف الآخر، ومنها على سبيل المثال الزمان والمكان، والتوأمة في الحديث على مستوى النظر والجلوس، فضلًا عن استثمار ما يرتبط بطريقة الخطاب نفسه بالتركيز على القيمة الوجدانية للكلمات وطريقة الكلام، ليصل بذلك إلى قلب المتلقي ويصنع ألفة وانسيابًا يتقبل بهما ما يلقى عليه.

عندما نزل التكليف على نبي الله موسى عليه السلام وطلب منه أن يسعى لتبليغ الكلمة لفرعون، ورغم علم الله بغطرسة فرعون وغروره واستبداده، إلا أن الرسالة لموسى كانت واضحة لا تحتمل الشك ﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فَقُولا لَهُ قَوْلا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ

﴿أَوْ يَخْشَى﴾[1]، واللين هنا إشارةٌ للخطاب الصوتي، لا نوعية الكلمات المستخدمة.

وهناك أربع مقومات للخطاب الصوتي هي:

- النبرة
- النغمة
- سرعة الحديث
- مستوى الحديث

فإذا استطاع الإنسان أن يستثمر كل هذه المقومات في دغدغة عواطف الطرف الآخر وخلق انسياب في الحديث، فعليه أن يفعل ذلك لبلوغ الهدف الخطابي.

(Time Frame) أو الإطار الزمني، هي القاعدة الرابعة، وخطأ استعمالها شائع لدى بعض المتدينين في خطابهم الديني حين لا يراعون وضع إطار زمني قابل لتحقيق الهدف الخطابي، كما يحصل في توجيه الخطاب للمدمنين ومروجي المخدرات، حيث يظن أحدهم أن النصيحة ببيان حكم المخدرات الشرعي كاف جدًّا لإحداث أثر سلوكي في الطرف الآخر من المرة الأولى. ورغم أن روايات من تراثنا الإسلامي تدلل على إمكانية حدوث تغيير سريع كما في قصة بشر الحافي، بيد أن القاعدة تستلزم إطارًا زمنيًا معقولًا لتحقيق نتيجة ملموسة للخطاب.

القاعدة الخامسة هي الحركة الإيكولوجية أو النمو الطبيعي للأثر (Ecology). وقد قيل قديمًا أن الأخلاق تمر بثلاث مراحل هي:

- **الحالة**، وتشمل مختلف مشاعر الإنسان النابعة كدافع سلوكي، والغير متأصلة فيه كفضيلة أو رذيلة أو كدافع سلوكي متماهٍ مع كيانه.

(١) سورة طه، الآية ٤٣، ٤٤.

- **الملكة**، وهي الهيئة الوجدانية التي يصعب استئصالها، والباعثة على السلوك.
- **الإتحاد**، وفي هذه المرحلة، تتحد الملكة مع كيان الشخصية حتى تصبح جزء لا يتجزأ منه.

وهذا الكلام يجرنا إلى خطاب المتدينين، وخصوصًا الخطاب المرتبط بمهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ ففي كثير من الأحيان ننطلق في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لأننا لا نتحمل وجدانيًا ولا قلبيًا رؤية المنكر، فنعيش اللوعة والزفرة والألم، فننطلق لننفس عنها بخطة تقلل من الانحراف واستئصاله مرحليًا. وقد تعرض الشيخ ناصر مكارم الشيرازي حفظه الله في بعض أحداثه لهذا الموضوع، مشيرًا إلى أنه يجب علينا أن نداري المعرفة الموضوعية بالمنكر، والمعرفة الموضوعية بالمعروف؛ فتأثير ناصح بترك المخدرات وهو يعي أصنافها وتأثير كل صنف منها على الإنسان سيكون حتمًا أبلغ من تأثير ناصح جاهل بها.

كذلك تتصف خطاباتنا بتركيزها على بعث الخشية في القلوب بمستوى يفوق الرجاء، الأمر الذي يبني في نفس الإنسان العاصي حاجزا يمنعه من الانخراط من جديد في المجتمع والمساهمة في بنائه مدنيًا وثقافيًا وحضاريًا، في حين أن أصل الخطاب الإسلامي يوازن بين الخشية والرجاء ويوجه لتحريكهما بما يناسب الإنسان، علمًا بأن موارد بعث الرجاء مؤثرة في أغلبها على الإنسان أكثر من موارد بعث الخشية.

ينقل أن نبي الله موسى ﷷ ركب فوق الجبل ونادى الله عزوجل قائلًا: يا الله، فأتاه الجواب لبيك. ثم قال له: يا رب المحسنين، فأتاه الجواب لبيك. ثم قال له: يا إله الطائعين، فأتاه الجواب لبيك. ثم قال له: يا إله العاصين، فأتاه الجواب لبيك، لبيك، لبيك. فاستغرب نبي الله موسى ﷷ وقال: يا الله ناديتك بأحب الأسماء إليك، فأجبتني بلبيك. وناديتك بإله الطائعين، فأجبتني بلبيك.

وناديتك بإله المحسنين، فأجبتني بلبيك. وناديتك بإله العاصين، فأجبتني لبيك، لبيك، لبيك. فأتاه الجواب: يا موسى، الطائعون يعولون على طاعتهم، والمحسنون يعولون على إحسانهم، أما العاصون فليس لهم أحد سواي، فإن أدبرت عنهم فبمن يلوذون؟).

هنا تتجلى رحمة الله سبحانه وتعالى بالعاصي الذي قد لا يجد منا مجتمعه غير النبذ والإقصاء. وفي حقيقة الأمر، ينبغي لنا أن نميز بين العاصي المستخف بحرمة شرع الله، والعاصي المتألم الذي يمتلك مساحة كبيرة للشروع وللوصول إلى قلبه وإرساء دعائم محبة الله سبحانه وتعالى فيه، ثم استقطابه إلى طريق الحق وجلبه إلى واحة الإيمان.

في حياتنا الاجتماعية والإنسانية قد نلتقي بأناس نختلف معهم في التفكير والتوجه، ينتمي أحدنا لمدرسة اجتهادية وينخرط آخر في تيار ديني أو حزب سياسي وقد يتبع مدرسة لا تسلم بالمشروع الإسلامي للتعمير والنهوض، لتبقى المساحة ـ بيننا جميعًا ـ مقدسة.

ذكر الشهيد دستغيب رضوان الله تعالى عليه في (الذنوب الكبيرة) رواية عن نبي الله إبراهيم سأنقلها لكم على أمل أن نأخذها للاستفادة منها بمعزل عن مفهوم العصمة حتى لا نقع في التباس. وقد جاء في الرواية أن نبي الله إبراهيم عليه السلام لم يكن يحب تناول طعامه لوحده؛ فكان يقطع مسافات طويلة ـ أحيانًا ـ باحثًا عن رجل يشاركه طعامه. وذات يوم التقى برجل، فدعاه، فقبل دعوته، حتى إذا ما بدأ في تناول طعامه لم يذكر اسم الله، فقال له نبي الله إبراهيم عليه السلام لم تذكر الله يا هذا، فأجابه الرجل مستهزئًا: ومن الله؟ فما كان من نبي الله إبراهيم إلا أن قال له: انصرف، أنا لا أتناول طعامي مع من ينكر وجود الله. فأوحى الله عزّ وجلّ للنبي إبراهيم عليه السلام أن يا إبراهيم، لقد أطعمنا وسقينا ورزقنا هذا الرجل خمسين سنة، حتى جعلناك اليوم السبيل لرزقه، فصرفته عن نعمتنا؟ فبكى نبي الله إبراهيم، وبحث عن الرجل حتى وجده

وطلب منه مشاركته طعامه مجددًا فرفض قائلًا: لا أعود؛ فلقد طردتني، حتى إذا ما أصر عليه نبي الله إبراهيم سأله عن السبب فبين له ما حدث، فقال إذا نعم الرب ربك، بسم الله الرحمن الرحيم.

هكذا يجب أن ننفتح على الآخر، بيد أنا إذا راجعنا خطابنا الدعوي سنجد فيه استغراق فئوي مذهبي انتعشت فيه الأنا فتغلبت على مفردات خطابنا واستراتيجية تسويقنا لديننا على البشرية التي لا تخرج عن أحد الدوائر الخمس التالية:

- منكري مفهوم الدين الذين ينكرون وجود الله سبحانه وتعالى ولا يخضعون لمبدأ الألوهية مطلقًا.
- أتباع الأديان المنحرفة التي لا تقر بالألوهية، كالبوذية، الهندوسية، وما إلى ذلك.
- أهل الكتاب.
- الخطاب الإسلامي العام.
- الخطاب المذهبي والفئوي داخل الإطار الإسلامي.

والدائرة الأخيرة، هي ما حبسنا فيها أنفسنا ـ مع الأسف الشديد ـ بما عرقل مشروع التغيير، وحال دون انفتاحنا على العالم بمخاطبة الدوائر التسويقية الأخرى مبتعدين عن الأطر الضيقة في التبليغ؛ حتى بات علماء القطيف يبلغون فيها، ويبلغ غيرهم في مناطقهم، رغم أن العشق مقدمة التكليف كما يقول السيد الخميني رحمه الله. والمقصود بالعشق هنا هو حب الله عز وجل الذي يجب علينا تأصيله في خطابنا وإرسائه في قلوب الآخرين.

منتدى الثلاثاء الثقافي

Thulatha Cultural Forum